The North African Journal of Scientific Publishing (NAJSP)
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي (NAJSP)

Volume 1, Issue 1, January-March 2023, Page No: 22-36
Website: https://najsp.com/index.php/home/index

صور المراهِق والمراهِقة وأشكال الانحراف الجنسي والاجتماعي رواية لوليتا نموذجًا / فلاديمير نابوكوف

أحمد شعبان [1*]، عبد الله بن عتو [2]
[1]طالب باحث، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، المغرب
[2] أستاذ التعليم العالي، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، المغرب

Pictures of the teenager Adolescence and forms of sexual and social deviance Lolita as a model / Vladimir Nabokov

Ahmed Chaabane [1*], Dr. Abdellah Banatou [2]
[1] Student researcher, Faculty of Educational Sciences FSE, Mohamed V University, Morocco
[2] Professor of higher Education, Faculty of Educational Sciences, FSF, Mohamed V university, Morocco

*المؤلف المراسل	chaabane14ahmed@gmail.com	*Corresponding author
تاريخ الاستلام: 2023-02-17	تاريخ القبول: 2023-03-11	تاريخ النشر: 2023-03-14

الملخص

حاولنا في هذه الدراسة التي حللنا مجموعة من المقاطع السردية أن نحدد أهم العوامل التي تؤثر في شخصية المراهِق والمراهِقة، سواء من الناحية النفسية أو العقيلة، ذلك باعتبار هذه المرحلة من أهم المراحل التي تتحكم في بناء فرد الغد الذي يعد بالجمع رأس مال أمة من الأمم. لذلك وقفنا على طبيعة العلاقة التي تجمع الفرد بالأسرة ثم الأقران والمحيط بغية الوصول إلى أهم ما يحول دون اتزان شخصية المراهق، ومن الدخول في انحرافات سواء كانت جنسية أو اجتماعية، شأن ذلك ما رأيناه في شخصية كل من المراهق همبرت، ولوليتا.

كما لاحظنا من جهة ثانية على أن تأثير مرحلة المراهقة قد يستمر بشكل غير طبيعي في حياة الفرد في سن الرشد، مما يجعله يعيش حياة المراهقة بشكل مشوه حتى وإن كان في سن الرشد الذي تكون فيه شخصية الفرد قد اكتملت. لذلك أكدنا في أكثر من مرة على أهمية ودور التربية، سواء من قبل الأسرة التي تحمل المسؤولية الأولى في تفهم وإفهام المراهق بخطورة المرحلة؛ بيد أن هذا لن يكون دون وعي الأب والأم بهذه المهام. كما أشرنا من ناحية أخرى إلى أن غياب كل من الأم أو الأب أو كلاهما سيؤثر لا محالة في طبيعة نمو المراهق وبالتالي سنكون أمام شخصية تعاني نقصا معينا في بنائها ومنه يحدث الانحراف الجنسي والاجتماعي في سن مبكرة.

الكلمات المفتاحية: المُراهِق، المراهِقَة، الانحراف الجنسي، الانحراف الاجتماعي، الأسرة، التربية، الاضطراب النفسي

Abstract

Through examining various narrative excerpts, we aimed to determine the significant elements that affect the psychological and intellectual aspects of adolescents. Recognizing and viewing this stage is essential in molding the future individual who is

seen as the backbone of a nation. Thus, we investigated the dynamics of the connection between the adolescent and their surroundings, including family, peers, and environment, aiming to pinpoint the crucial elements that upset the equilibrium of their personality and drive them towards aberrant conduct, whether it be sexual or social, as exemplified by the characters of Humbert and Lolita. On the other hand, we also observed that the impact of adolescence might persist abnormally into adulthood, causing the individual to live a distorted adolescent life even when their personality has fully developed. Thus, we emphasized the importance and role of education, both by the family, which bears the primary responsibility for understanding and educating the adolescent about the dangers of this phase, and by the parents' awareness of these tasks. Moreover, we stressed the significance of the role played by both parents in the proper growth and development of adolescents. The absence of either the mother, father, or both, will undoubtedly affect the adolescent's character formation, leading to certain inadequacies and potential for premature sexual and social deviance.

Keywords: Adolescence, Sexual Deviation, Social deviance, Family, Education, Psychological Disorder.

مقدمة

تعد الرواية من بين الأجناس الأدبية التي استطاعت عبر مراحل تاريخية الكشف عن واقع الإنسان بمختلف تناقضاته وآماله وأفراحه وفي حالاته السوية والشاذة، فخصائص هذا الفن جعل إمكانية الدخول في أعماق الذات البشرية أمرا ممكنا من خلال الشخوص التي تحيل بشكل من الأشكال على ذوات آدمية في الواقع، ورغم أن العديد من الكتاب والنقاد قد اعتبروا الشخصيات الرواية خيالية لا علاقة لها بشخصيات حقيقة، إلا أنها تقدم للمتلقي صورة عن السياق الاجتماعي الذي عاش فيه هذا الكاتب أو ذاك وعن حالات نفسية عاشها أو عايشتها الشخصيات التي كانت في دائرة محيطه الاجتماعي.

من هنا المنطلق وقع اختيارنا على رواية لوليتا لكاتبها فلاديمير نابوكوف الذي يعد من كبار الروائيين في أمريكا، وتعد هذه الرواية من بين أفضل مئة رواية، كما أنها كانت محطة اهتمام مجموعة من النقاد والدارسين، ناهيك عن تحولها إلى فيلم سينمائي ونص مسرحي في فترة من الفترات الزمنية، هذا يدل على قوة الإبداع فيها وبراعة الأسلوب ثم خصائص الموضوع الذي يعد أهم ما أثار انتباهنا بحكم ارتباطنا بصورة المراهقة في السرد الروائي المغربي.

تشكل الشخصيات الروائية بتعددها واختلاف مداركها ومجالات عملها شغل كل باحث في مجال الأدب وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي؛ من هنا سنحاول تحديد ملامح- المراهق- المراهقة- نمطين مختلفين، النمط الأول تحدد فيمن صور المراهِق وطبيعة التنشئة الاجتماعية التي تعرض لها داخل سياق الرواية، ومن جهة ثانية سنكشف عن الاختلال الذي طرأ على مسار حياتهم نتيجة عوامل التنشئة الأسرية وعلاقته بالأقران وما نتج عن هذه العلاقة من اضطرابات نفسية.

أما بالنسبة للنمط الثاني فسيكون عبارة عن مجموعة من الصور التي ظهرت بها شخصية المراهِقة في رواية لوليتا، حيث سنعمد إلى الكشف عن بنية علاقاتها سواء داخل الأسرة أو خارجها، بالإضافة إلى إبراز بعض مظاهر هذه الصور والأسباب التي جعلتها تظهر بهذا الشكل دون غيره. وبالعودة إلى الرواية التي تعد متن اشتغلنا، فمعلوم أنها قد خضعت لمجموعة من الدراسات، خصوصا وأنها أثارت مجموعة من المواضيع التي لم يتقبلها المجتمع الغربي إبان ظهورها، مما جعلها تتعرض لحملة كبيرة ومنعت من النشر لسنوات؛ لكن بعد تفتح المجتمع وإقرار بعض الدراسات أن العمل الفني يظل في النهاية العمل مجرد إبداع يحمل تصور ومواقف لا تعبر بالضرورة عن مواقف الكاتب، بل قد تكون قراءة للمحيط من زاوية

فنية مما يؤدي إلى نقد خبايا المجتمع التي كانت مستورة دون أن يجرأ أحد على فضح هذا الخفي تحت عباءة القيم الأخلاقية التي أخضعت إنسانية الفرد.

أولًا: إشكالية الدراسة

تكمن الإشكالية التي ستحاول الدراسة الإجابة عنها في فترة المراهقة التي يغفلها الكثير من الباحثين أو التساؤل عن طبيعتها أو الفكر المحدد لها أو عن كيفية إدراج هذه الفترة في العمل الفني. هذه المرحلة التي تعد أبرز مرحلة في حياة الإنسان والتي يمكن أن تكون هي جوهر تشكيل بنية الفرد السوي في المجتمع أو إنتاج فرد يعاني من اضطرابات أو شذوذ جنسي أو ذات تميل إلى العنف. كل هذه السلوكيات سبق أن فسرها علم النفس وعلم النفس الاجتماعي من داخل التخصص، إلا أن مقاربتها من زاوية أخرى- الانطلاق من شخصيات روائية- ظل محدودا في دراسات قليلة في العالم العربي تحديدا.

من هنا يمكن صوغ الإشكالية التي توجه البحث في اعتبار المراهقة مرحلة وجودية يفرضها نمو الفرد من جهة، غير أن هذا النمو يعترضه مجموعة من العراقيل التي تحول دون تحقق الذات ونموها السوي نفسيا وعقليا. ومن جهة ثانية حضور المراهق في الأعمال الروائية تارة حامل لتناقضات شتى وتارة أخرى في حالة عادية، وبالتالي كيف يمكن تحديد هذه المفارقة التي تبني شخصية المراهق في الرواية؟ وهل هو انعكاس لوجوده الفعلي في المجتمع أم أنه مجرد شخصية تعبر بشكل عام عن مرحلة إنسانية عابرة؟

من هذا المنطلق، يمكن طرح مجموعة من الأسئلة الإشكالية وفيما يلي تفصيل لذلك:

*كيف يمكن تفسير العلاقة بين الرواية والواقع؟
*ما هي خصائص فترة المراهقة؟
*ما هي العوامل التي تساهم في تكوين شخصية المراهق والمراهِقة؟
*ما هي خصائص المراهِقة وكيف صورت في الرواية؟
*ما هي أبرز الانحرافات التي شكلت ملامح المراهِق والمراهِقة؟

ثانيًا: منهجية الدراسة

سنعتمد في هذه الدراسة على الإطار المفاهيمي لكل من علم النفس وعلم النفس الاجتماعي، بالإضافة إلى بعض المفاهيم الخاصة بالنقد الروائي مادام المتن الذي سنشتغل عليه هو الرواية. أما بالنسبة للعدة المنهجية فإن طبيعة الدراسة تفرض علينا استعمال أدوات تحليل المضمون من خلال الاتكاء على الوصف والتحليل اللذين نراهما مناسبين لطبيعة المقال الذي سنحاول التفصيل فيه. فالوصف سيسهل علينا عملية تحديد أهم المقاطع السردية التي ضمّت أهم صور المراهق والمراهقة في رواية لوليتا لكاتبها فلاديمير نابوكوف، ثم بعدها تأتي مرحلة التحليل الذي سنعرض من خلاله أهم العناصر المشكلة لكل شخصية من الشخصيات التي وقع عليها اختيار البحث.

ثالثًا: أهداف الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف من بينها ما يلي:
*الكشف عن العلاقة الوثيقة بين الرواية وعلم النفس.
*اعتبار الشخصيات الرواية من أبرز العناصر الروائية في تحديد تناقضات الواقع.
*تحديد مميزات مرحلة المراهقة كمرحلة تستحق البحث إبداعا ونقدا.
*إبراز بعض العوامل التي تساهم في توريط المراهق والمراهقة في انحرافات متعددة.
*اعتبار هذه الدراسة مدخل من أجل إرساء مفهوم التربية والعناية بهذه الفئة في المجتمع العربي والمغربي خاصة.

1-الرواية بين الواقع وعلم النفس

معروف في الساحة الفنية منذ القديم أن الفن كان من بين الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن أحاسيسه الدفينة، سواء كانت هذه الأحاسيس تثير في نفسه البهجة والسرور، أو كانت عبارة عن مجموعة من التناقضات التي تعيشها الذات في أسوء حالاتها على الإطلاق. من بين هذه الفنون، نجد المسرح بمختلف أنواعه والشعر بأصنافه وفنون الشارع الحلقة وصولا إلى أرقى الفنون التي ابتدعها الإنسان الحديث كالرواية والسينما.

لا شك أن القارئ سيتساءل عن جدوى العلاقة بين الرواية وباقي الفنون بالواقع، وقد يتساءل عن مدى مصداقية هذا التعبير ومدى مطابقته للواقع. إن الإجابة عن هذا السؤال الافتراضي الذي يمكن أن يطرح من قبل أي قارئ عاشق للفنون يستعدي بالضرورة استحضار مجموعة من الحقائق التي توصل إليها الكثير من الباحثين في مجال الأدب وفي علم النفس، لذلك سنحاول أن نعرض بعضا منها.

من السباقين إلى اكتشاف طبيعة العلاقة بين الفن والذات البشرية نجد أرسطو في كتابه فن الشعر، معتبرا المشاهد التي تعرض أمام المشاهدين- التراجيديا- نوعا من التطهير والخلاص من كل السلبيات التي يمكن أن يحس بها أي فرد. يبدو أن منطلق العلاقة كان من خلال اعتبار الفن وسيلة من الوسائل التي يستفيد منها الإنسان من أجل إعادة التوازن لشخصيته من خلال فعل المشاهدة.

لذلك أشار بعض النقاد على أن أول إشارة إلى علاقة الفن بعلم النفس يمكن ردها إلى الفلسفة اليونانية باعتبارها فسلفه استفاد منها الغرب والعرب على مدى قرون من الزمن.

مع تقدم الفنون وتطور مناهج البحث في العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية ازداد ارتباط الفن بالواقع إذ" هناك واقع يراه كل الناس، ويدركونه بشكل فوري ومباشر، واقع معروف ومدروس ومحدد، واقع اجترته أشكال تعبيرية أصبحت نفسها معروفة ومسطحة لكثرة تكرارها" (بنحدو، صفحة 12). لكن في المقابل هنالك واقع خفي مستور لا يجرأ أحد على التنقيب فيه إلا القلة القليلة من الكتاب والمبدعين، إما لكون هذا الواقع لا يسمح للمبدع في بتناول خفاياه من خلال فرض قيود صارمة على الإبداع، أو خوف البعض من التعبير عن هذه التناقضات التي قد تعود عليه بنتائج عكسية من خلال عدم تفريق المتلقي بين شخصيات حقيقة وشخصيات ورقية وإن كانت تحمل جزء من الحقيقة الاجتماعية للذات الكاتبة. غير أن خوف المبدع من إسقاط حياة شخصوه عليه يجعله متوجسا من المخاطرة في مثل هذه المواضيع الحساسة.

لتأكيد هذه العلاقة التي أشرنا إليها سابقا، نستحضر ما جاء في كتاب أحمد أوزي، الطفل والمجتمع، فقد أشار فيه على أن الأدب سبق علم النفس في محاولة استكشاف حقيقة النفس البشرية، فقد سبق" سوفوكليس" و"شكسبير" و" دوستوفسكي" فرويد بقرون، إذ أن الأديب المبدع وثيق الصلة بينابيع اللاشعور الفياضة يغرف منها ويعبر بلغته على نحو تلقائي. مشيرا على أن فرويد كان من محبي الأدب العالمي ومن خلاله وصل إلى أهم نظرية في التحليل النفسي." (أوزي، 1988، صفحة 17) التي استمرت لعقود ولا تزال سارية المفعول إلى حدود الآن. فالهدف من عرض بعض المحطات التاريخية لعلاقة الرواية بالواقع هو إبراز منطلق اكتشاف مجموعة من الكتاب في علم النفس تناقضات الذات البشرية قبل ظهور نظرية التحليل النفسي وقبل ظهور كتابات نقدية تفسر طبيعة الشخصيات من خلال الاستفادة من أنماط الشخصيات التي حددها علم النفس.

2-صورة المراهق في رواية لوليتا لفلاديمير نابوكوف

تعد مرحلة المراهقة من بين أهم المراحل العمرية في حياة الإنسان نظرا لكونها فترة تتميز بمجموعة من التغيرات، الجسمية والنفسية والانفعالية والعقلية، لذلك سهر مجموعة من المتخصصين في علم النفس على الاهتمام بهذه الفترة من عدة جوانب. لأنه" عادة ما يعرف علم النفس اليوم بأنه العلم الذي يدرس السلوك والعمليات العقلية" (دافيدوف، صفحة 24) للإنسان في مختلف المراحل العمرية، هنا ركزنا على المراهق بالتحديد نظرا لأهمية هذه المرحلة في تحديد سلوكيات الفرد طيلة سنوات حياته.

وقبل أن نبدأ في تحديد ولملمة ملامح المراهق في هذه الرواية لابد من تقديم فكرة موجزة عن هذه الرواية. إذ تدور أحداث الرواية بشكل عام بين مراهق ومراهقة في بداية الرواية والظروف التي أحاطت وشكلت شخصية المراهق" همبرت" لينتقل بعدها الكاتب إلى رسم ملامح هذه الشخصية بعد سنوات يكشف

فيها عن حياته والاضطرابات التي عاشتها هذه الشخصية في علاقته بزوجته، ثم بطبيعة الرغبة الجنسية الشاذة التي تنتاب همبرت بعدما وصل إلى الخمسينات من عمره. ولابد أن نشير في هذا السياق إلى أننا سنقتصر في هذا الجزء على فترة المراهقة لهمبرت وابنة جيرانه أنابيل.

أ-المراهق والمحيط الاجتماعي

يلعب المحيط الاجتماعي دورا مهما في حياة الأطفال والمراهقين، بل وقد يمتد في كثير من الأحيان إلى التأثير على حياة الراشدين بدورهم، لذلك فكلما كان المحيط الذي يعيش فيه المراهق محيطا منسجما كلما كانت تنشئه سليمة. وعلى هذا الأساس؛ فأي تقصير أو خلل سواء في بنية الأسرة أو في محيط الأقران أو المدرسة قد يؤدي إلى نتائج عكسية تجعل من حياة المراهق حياة سلبية، نفسيا واجتماعيا وعقليا. فنمو المراهق في هذه المرحلة يستدعي من جل الأطراف –كل أشكال التنشئة الاجتماعية- التعاون من أجل تيسير نمو المراهق وتربيته على الأخلاق والتفاعل والتعايش مع محيطه.

لكن؛ من بين الصعوبات التي تعترض كل الفاعلين في مواجهة المراهق، هي الرغبة الجنسية التي تكون عنيفة في ظل التغيرات الفيزيولوجية، لذلك لابد من التحلي بالصبر واتخاذ التربية والتواصل والحوار كأدوات من أجل تهذيب سلوك المراهق والحرص على تقديم كل الإجابات التي تورق تفكيره الذي لا يهدأ ولا يمل من طرح التساؤلات في كل المجالات، أملا في الإقرار بمكانه داخل بنية الأسرة. إذا كان حال المراهق هو هذا الحال في عالم الواقع، فإننا سنحاول الكشف عن مدى تمكن الفن الروائي من تصوير هذه المرحلة بكل أحلامها وتناقضاتها."فالفن وإن كانت المتعة الفنية أساسه، فهو كذلك وسيلة لتنمية الفكر وتربية الذوق. فالأدب الروائي الذي يجسد الأشخاص والمجتمع في تفاعلاتهما، يقوم بخدمة مجال السيكولوجيا التي تقدم قوانين وصور تجريدية لعمليات نفسية شعورية ولاشعورية". (أوزي، صفحة 21) تصف فيها كنه الشخصيات بشكل من الأشكال.

كي نحدد بعض ملاح المراهق في رواية لوليتا، نستحضر المقطع السردي التالي" إنني أقلب وأقلب ذكرياتي متسائلا طيلة الوقت عمّا إذا كان التصدع في حياتي قد بدأ في ذلك الصيف السحيق أم أن شبقي الشديد إلى تلك الطفلة كان أو قرينة على فرديتي الانعزالية الوراثية" (نابوكوف، صفحة 15) يكشف المقطع السردي عن حوار شخصية همبرت مع هيئة المحكمة موضحا بعض أسباب العلة التي يعاني منها وهو في الخمسينات من عمره. قد لا نكتفي بهذا المقطع الذي لا يكشف بشكل كبير عن ملامح هذه الشخصية بقدر ما يقدم لنا بشكل موجز نوع المرض الذي صاحب المراهق حتى سن متأخرة في حياته، لذلك سيكون علينا البحث عن خلفية أسباب التصدع الذي تخلل حياة هبمرت قبل الدخول في تحليل طبيعة وشكل المرض الذي تجدر في كيانه دون أن يجد طريقة للفكاك منه.

هكذا سنحاول في هذا السياق تحديد علاقة المراهق بالأسرة، الأب والأم من أجل معرفة طبيعة تربية التي تعرض لها أثناء طفولته التي أثرت بشكل كبير في مرحلة المراهقة،إذ يمكن القول أن بنية الإنسان تشبه إلى حد كبير شكل بناء المنزل، فلا يعقل أن يستقيم البناء دون أن يكون ساسه قائم على أساس متين.

من بين المقاطع الدالة على أهمية التنشئة الاجتماعية في تشكيل بنية المراهق في الرواية نفسيا واجتماعيا، نذكر ما جاء على لسان المراهق." أما أمي فهي انكليزية وقد توفيت بضربة صاعقة عندما كنت في الثالثة من عمري، فلست أذكر عنها شيئا سوى ما تنطوي عليه ذاكرة وجداني من دفء الحنان الذي كانت تغمرني به." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 10) تقدم الرواية في هذا الصدد بعض العلامات الدالة على جزء من تاريخ المراهق الذي عاش يتيم الأم.

من المعلوم في حقل التربية وعلم النفس أن أهمية الأم ضروري في بناء شخصية الطفل ونموه السوي وعدم وجودها سيشكل بأي شكل من الأشكال على خصائص نمو الطفل مرورا بمرحلة المراهقة التي تكون نتاج المرحلة السابقة.

فإذا كان حضور الأم باهتا في حياة همبرت الذي لم يتجاوز ثلاث سنوات فإنه من ناحية أخرى قد حظي باهتمام كبير من طرف والده الذي كان يدلل ابنه بشكل كبير، ربما رغبة من الأب في سد ثغرة حنان الأم التي رحلت بشكل مبكر عنهم.

من ذلك ما جاء على سان السارد المراهق" وكان أبي... البابا العزيز الصغير.. يأخذني في نزهات بحرية بالقارب، وكان يقرأ لي صفحات من دون كيشوت والبؤساء. وكنت مولعا بحبه أكن له الاحترام الشديد. إذ أسمع خادمات الفندق يروين الأقاصيص عن صديقاته وعشيقاته الكثيرات اللواتي كنَ دوما من النساء الجميلات وطالما أغدقن عليَ العطف وذرفن الدموع تأثرا من يتمي." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 12) يلاحظ قارئ رواية لوليتا أن المراهق يقر بشكل لا يدع مجال للشك بأهمية الأب في حياته وطبيعة تعامله معه التي تنم عن حب وعناية فائقة، سواء على المستوى النفسي، الخروج في نزهات أو بالعناية المعرفية من خلال تعريف المراهق على أعمال أدبية معروفة.

لكن؛ رغم العناية الشديدة التي تلقها المراهق همبرت من قبل والده، إلا أن تأثير الأب فيه كان واضحا ولو كان بشكل خفي، من ذلك تذكر المراهق مغامرات والده مع النساء الجميلات اللواتي كنَ يغدقن عليه بالحب والحناء والهدايا. حيث يمكن أن يكون هذا الشعور في مرحلة المراهقة كفيلا بفتح باب الشهوة التي كانت تتقد في كيانه.

ومن أهم التأثيرات التي يمكن أن تأثر على المراهق من قبل المحيط الاجتماعي سواء بشكل واع أو ضمني- القيم الثقافية للبلد- وتغير سلوكيات المراهق." فالسلوك الاجتماعي تفاعل بين الأفراد. وليس من الضروري أن يكون التفاعل الاجتماعي وجها لوجه. فالسلوك الاجتماعي هو السلوك الذي يحدث في حضور الآخرين أو أثناء غيابهم، غير أنه يتأثر بهم لأنهم يمثلون حقائق في المجال النفسي للفرد." (زهران، 1984، صفحة 10) الذي يشكل بنية فهمه للأشياء وفتح مداركه على عالم من العوالم الخفية، لذلك فعالم اللهو والتجارب الجنسية التي كان والده يعيشها بدون أي خوف أو رقيب كانت تنقش بحروف عريضة في ذاكرة المراهق الذي سرعان ما سنتفجر رغباته الجنسية هو الآخر.

ب-المراهق والمراهِقة أية علاقة؟

إن عالم المراهقة عالم فريد، عالم متناقض وحافل بالتجريب والاكتشافات التي تعد جوهر هذه الفترة. إذ يحاول المراهق أو المراهقة البحث عن الاعتراف والبحث عن الهوية. كل هذه الأفعال تجعل من فعل التربية والتواصل مع المراهقين أمرا معقدا وصعبا في كثير من الأحيان، خصوصا إذا كان هنالك فرق صارخ بين تربية الطفولة وتربية المراهقة. فالمراهقة" تصاحبها مجموعة من التغيرات الفسيولوجية والنفسية التي تظهر على شكل أعراض مرضية أحيانا، وحسب رأي إريكسون فإن المراهق أو المراهقة قد يصابان باضطراب نفسي فعلي يستوجب العلاج النفسي." (سييتز، 1998، صفحة 14) في حالة عدم توافق رغباته ونزعاته مع البيئة والثقافة التي نشأ فيها. لذلك إذا كانا نرغب في جعل مرحلة المراهقة أقل حدة فيجب علينا أن نعرف خصوصية هذه المرحلة من عدة جوانب أو نستشير أخصائيا في حالة تعذر علينا إيجاب حل في التواصل مع المراهق أو المراهقة وسط أسرتها أو وسط عملنا في مجال التدريس خاصة.

إذا كان الحال هو هذا، فإننا لابد أن نشدد على مسألة مهمة قبل أن نطل على طبيعة العلاقات التي تنشأ بين المراهقين. فالمراهقة بحد ذاتها قد تختلف من مراهق إلى آخر نظرا لاختلاف البنية النفسية لكل إنسان، بالإضافة إلى اختلاف البيئة الاجتماعية التي ولد فيها المراهق، يحث سبق أن أشارت الباحثة الأنتروبولوجية مارغريت ميد على دور البيئة بعدما اكتشفت أن بعض المجتمعات لا تعرف مرحلة المراهقة بمعنى المعروف اليوم، نظرا لاختلاف بنيتها- الانتقال من الطفولة إلى مرحلة الرشد الزواج المبكر- عن بعض البنيات الاجتماعية المتطورة. فالمجتمعات المتطورة يمر فيها المراهقون بمجموعة من الصعاب من أجل الوصول إلى مرحلة الرشد والدخول في عالم الكبار، كالدراسة، والبحث عن العمل والاستقرار المادي، حيث يمكن أن يطول بهم الأمر مما يجعل مرحلة المراهقة تطول هي الأخرى.

استناداً إلى ما سبق نذكر القراء أن أننا سنهتم في هذا السياق ببداية المراهقة لشخصية همبرت والمراهقة آنابيل باعتمارهما أهم الشخصيات التي سيطرت على مجال السرد في البداية، ناهيك عن دور هذه التجربة في نحت معالم المراهق بالتحديد. يقول همبرت معتمدا على الذاكرة وهو يقدم لنا تفاصيل مرحلة المراهقة" ولست أذكر تجربة جنسية واضحة المعالم حدثت لي قبل أن أبلغ الثالثة عشرة وألتقي

بالصغيرة أنابيل" (نابوكوف، لوليتا، صفحة 12) يقصد هنا بالصغيرة لأنه في مرحلة الخميسيات، في حين كانت أنابيل في نفس سنه تقريبا إبان مرحلة المراهقة. هكذا يبدو أن همبرت يعود بنا بشكل تدرجي معتمدا على الأفعال ماضية إلى بدايات تبلور شخصيته التي استقرت عليه في زمن حكيه للقصة أمام هيئة المحكمة. حيث يؤكد على أن التجربة الجنسية كانت في سن الثالثة عشرة مما يحيل على أنه بدأ في التجارب الجنسية مكبرا.

سبق أن أشرنا أعلاه إلى تعدد عوامل التجربة، إلا أن السياق الاجتماعي والثقافي يعدان أهم العوامل المؤثرة والمشجعة على فعل الاتصال الجنسي المبكر. لا نقصد هنا أن المجمع هو الذي يشجع أو الأسرة، بل طبيعة الثقافة المنفحة على قيم الحرية والتحرر من جهة، ثم عدم وجود تواصل جدي ومتين بين عالم الكبار والمراهقين حتى وإن كانت هنالك رقابة عليهم. فالرقابة لا تكفي ولا تمنع من خوض المراهقين للتجارب الجنسية بقدر حث المراهق أو المراهقة على خطورة وعواقب التجربة في هذا السن المكبر.

"فالكبار ليسوا وحدهم الذين يحرمون الحديث الفاضح أو السلوك الخارج، ولكن المجتمع البشري كله يتفق على ذلك. وإن تنوعت الاختلافات من مكان إلى مكان، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن زمان إلى زمان." (سبوك، صفحة 44)ولعل هذا واضح وجلي في عصرنا الحالي، حيث نجد العديد من المراهقين والمراهقات سواء في العالم الغربي أو العربي يتفاخرون بتعدد العلاقات أو الخروج بصور أو فيديوهات تكشف عن بعد المغازلات والسلوكيات الدالة على مدى هيمنة الرغبة الجنسية على سلوكياتهم.

هكذا نجد المراهق بعدما استلم مهمة السرد يستعرض بالتدريج طبيعة إحساساته الجنسية التي لم يفقدها بعد سنوات طوال. يقول" إن هذه الملامسات المبتورة كانت تسبب لجسدينا إرهاقا وهيجانا بالغين ما كانت حتى كل مياه البحر الزرقاء لتستطيع تفريج كربتها وإطفاء اللظى الذي يستعر في جسدينا." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 14) من خلال طبيعة السرد ومعجم المفردات الدالة على قمة الرغبة في الآخر يمكن القول أن المراهق همبرت وأنابيل كانا في أمس الحاجة إلى وصال حفيفي بينهما، إلا أن علاقتهما ظلت مجرد ملامسات مبتورة كما جاء على لسانه مما زاد من تعطشهما إلى تجريب وسائل جديدة وانتظار لحظات أخرى من أجل اكتمال متعة الرغبة التي تعتري جسديهما.

هكذا بدأت هذه العلاقة العاطفية التي جمعت كل من المراهقين والتي ستفعل فعلها في كل منهما، بل وستؤثر في نمط سلوك همبرت خاصة، ونفسيته ومسار تفكيره الذي لن يفارق هذه الهزات الجنسية الفطرية إن صح التعبير.

لأن الرغبة في الآخر والإحساس بتدفق المشاعر أمر طبيعي في المراهقة التي تأتي مباشرة بعد بداية نضج الأعضاء التناسلية لكل من الذكر والأنثى، ونستحضر في هذا الصدد التصور الذي يؤكد أهمية الدافع الجنسي. إذ يقول:

" إن الدافع الجنسي مثله مثل مارد جبَار أعمى يبحث مثل السجين عن مخرج، وما من رجل ترعرع في ثقافتنا يمكنه أن ينسى كليا أنه عانى من الحاجة الجنسية إبان سنوات نضجه وبعدها في الغالب." (رايك، 2005، صفحة 234)لذلك تظل ذكريات الرجل أو الأنثى حافلة بمجموعة من التجارب سواء كانت هذه التجارب عابرة ومجرد إحساسات جيَاشة، أو عبارة عن تجارب فعلية عاشها كل منهما في فترة من فترات المراهقة، وهذا ما يجعل نسياها صعبا لأنها ارتبطت ببداية الرغبة في الآخر باعتباره موضوعا جنسيا.

تعد العلاقة بين الأقران في حياة المراهقين من أهم المحطات الحياتية أهمية، نظرا لتقارب تفكيرهم وسنهم وتشابه تساؤلاتهم وتعقيدات رغباته التي تبدو بالنسبة لهم أهم شيء يجب الإجابة عنه أو اكتشافه عن طريق التجريب.

فالدراسة سبقت أن حددت نوعية الأقران في شخصية المراهق همبرت وشخصية أنابيل باعتبارهما أهم الشخصيات المراهقة التي تثير قلق وحافز الباحث في مجال الأدب أو السيكولوجيا أو السوسيولوجيا، كما أن القارئ بدوره يصعب عليه في القراءة الأولى أن يحدد مسار الأحداث أو يتكهن بأحاسيس الذوات والظروف التي ستعيشها وفق تجاربها في هذه المرحلة. لذلك سنحاول أن نكشف قدر الإمكان عن تبعات هذا النمط من العلاقات المكبرة في حياة المراهق.

من ذلك اعترافات همبرت قائلا: وأنني إذ أحاول أن أحلل نوازع شهواتي ودوافعي وأعمالي فإنني استسلم إلى نوع من الخيال المتداعي نحو الماضي وهو خيال يغذي ملكة المناقشة بما لا يحصى من العوامل والأسباب والاحتمالات ليجعل من ذلك الماضي شيئا معقدا يثير هوسي." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 15) سيلاحظ المتلقي بشكل صريح اعتراف همبرت بأهمية الماضي الذي جعل حياته تستقر على ما هي عليه من حيث بناء الشخصية، غير أنه يضيف أن شكل الرغبة والشهوة التي تعتري كيانه من حين لآخر مردها يعود إلى فترة المراهقة التي تذوق فيها سحر القبلات الأولى، سحر الرعشة الجنسية التي تستقر بين عفوية الطفولة ورغبات شيطانية تفرضها مرحلة المراهقة.

للإشارة فقط، فالشخصية لم تحسم بأحادية الأسباب التي أحاطت بشخصيته، بل أشار بنوع من الموضوعية الصريحة إلى تعدد العوامل التي قادته دون غيره إلى أن يكون هو كما هو ألان وليس شخصا آخر. ولا ضير في تذكير القارئ ببعض الأحداث المحورية في حياة همبرت. هذا المراهق/في الماضي/ الرجل في الحاضر/ عاش يتيما ليظل مع والده الذي عشق اللهو والنساء، بالإضافة إلى أن المحيط الذي عاش فيه والده فرض عليه نوعا من العناية الخاصة من طرف عشيقاته الساحرات حسب تعبيره، ناهيك عن جماله الساحر.

كل هذه العوامل وغيرها قادت المراهق إلى نوع محدد من الحياة ونوع مختلف من الأحاسيس التي سنشير إليها في الجزء الموالي؛ لذلك ركزنا في هذا المقام على تحديد نقطة التحول في حياة المراهق همبرت أو بعبارة أخرى على المرحلة التي استقرت عليها رغبته الجنسية لتبقى رغبة مراهقة دون أن تنمو كما نما جسمه وتفكيره وعمله. يقول" إنني أعرف كذلك بأن الصدمة التي سببتها لي وفاة أنابيل قد عززت التشتت النفسي الذي أصابني ذلك الصيف المشئوم المفعم بالكبت وجعل من ذلك التشتت عقبة في طريق أي غرام صادفته في سنوات شبابي." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 16)

يشير هذا المقطع إلى أهم تحول يمكن أن يصيب أو يسبب أزمة نفسية للمراهق أو المراهقة، خصوصا إذا لم يكن هذا الأخير تحت عناية أسرية تراعي سياق المرحلة وأحاسيس هذا الكائن المخضرم-طفل-مراهق، محلوق بينيٌ لا هو بكبير ولا هو بصغير.

لاغرو في أن موت المراهقة أنابيل بشكل مفاجئ بدون سابق إنذار سيخلق نوعا من الأذى النفسي، فالعلاقة السرية التي كانت تجمع المراهقين لم تكن معلنة أو مكشوفة أمام العلن أو أسرهما، لذلك ظل المراهق يعاني في صمت قاتل يعود يقلب صفحات الماضي وهو يبحث عن اللحظات واللمسات التي جمعتهما معا. حيث يمكن القول إن أهم عامل في ارتباط حب هبمرت بالمراهقات اللواتي لم يتجاوزن الثالثة عشرة أصله قابع في مراهقته وبرغبته في المراهقة أنابيل. فالرغبة الجنسية ليست رغبة فردية يمتلكها فرد دون غيره بل هي رغبة مشتركة وإن اختلفت طبيعة الأحاسيس." فالجنس مسألة تشغلنا جميعا، إنه مصدر ملذاتنا الأكثر نشوة، وغالبا ما يكون أيضا سبب بؤسنا، والذي ينشأ عنه الكثير من صراعات الأدوار التطورية للنساء والرجال." (دايموند، 2020، صفحة 16) يؤكد جاريد دايموند على أن الجنس والإحساسات الجنسية مطلب كوني جامع ومشترك بين الذوات البشرية، لكن بقدر ما يضم هذا الشعور متعة ساحرة وخاصة، قد يكون في كثير من الأحيان سببا في تدمير حياة الفرد والقضاء على حياته الطبيعية التي كان ليعيشها.

وخير مثال على الجانب العكسي للمتعة الجنسية ما عاشه المراهق هامبرت في رواية لوليتا، وما عاشه محمد في السيرة الذاتية الروائية الخبز الحافي لمحمد شكري، وما عاشه المراهق حميد في محاولة عيش لمحمد زفزاف وغيرهم من المراهقين الذين تأخذهم ملذات الجنس إلى مدارات من الصراع والاضطرابات النفسية التي تنتهي في الغالب إلى دخول عالم الانحراف بأشكاله. لذلك فالحياة الصعبة والمعاناة في البحث عن موضوع جنسي يشبه المراهقة آنابيل أخذ من حياة المراهق همبرت سنوات طويلة، ناهيك عن عدم نضج أحاسيسه التي ظلت متعلقة بالمراهقات والتي ستفصل فيها فيما تبقى من هذا البحث.

3-المراهِقة والانحرافات الجنسية في رواية لوليتا

تتشكل حياة الإنسان من عدة مراحل مترابطة فيما بينها كسلسة متماسكة، حيث يمكن لأي خلل أن يشوه من انتظامها وانسجامها، هكذا نتصور حياة الإنسان، فمرحلة الطفولة مهمة في بناء الفرد وتعد أساس تكوين هويته، بالإضافة إلى مرحلة المراهقة التي تبنى أسسها ضوابطها على المرحلة السابقة. أما مرحلة الرشد بمختلف مراحلها هي الأخرى فإنها تعد نتاج المراحل السابقة، أي إذا كان الفرد قد عاش حياة طبيعية خالية من الصدمات النفسية وشعور بالنقص وخال من العقد فإنه سيكون فردا سويا داخل مجتمعه ومساهما في بناء جيل سوي.

أما إذا كان الفرد قد عاش حياة صعبة توزعت بين التشرد وسوء التربية والانفتاح المبكر على ملذات الحياة كالجنس والمخدرات فلا داعي أن ننظر بمحض الصدفة أن يكون فردا صالحا بقدر ما يجب أن نتخوف من حجم الانحرافات التي تولدت لديه في ظل الوسط الذي عاش فيه.

مادام أن المتن الذي نشتغل عليه هو الرواية؛ فإننا سنحاول قدر الإمكان تحديد ملامح انحراف الفرد جنسيا من خلال حياته في فترة المراهقة، بمعنى أننا لن نركز على حياة المراهق همبرت إبان مراهقته، بقدر ما سنرصد شدة تأثير تجارب المراهقة في حياته أثناء مرحلة الرشد. هذا جوهر ما تتوخى هذه الدراسة توضيحه بشكل كبير من أجل لفت الانتباه لهذه الفئة العمرية التي لا تجد سندا قويا يحميها من نفسها ومن الغير الذي قد يكون سببا في استدراجها إلى الانحراف الجنسي أو غيره من الانحرافات الأخرى.

من المقاطع السردية الدالة على انحراف همبرت ورغبته في شبيهات أنابيل التي أحبها وهام بها في فترة مراهقته، إذ يقول" قلت لنفسي أنني أنشد من زواجي ذلك الجو العائلي التقليدي الخليق بأن يلطف من سعير شذوذي، فإن ما جذبني حقا إلى فاليريا كان قدرتها على أن تبدو بمظهر الفتاة الصغيرة المراهقة." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 32) نستخلص من المقطع السردي مجموعة من العبارات الدالة على تورط نفسية همبرت في مجموعة من التناقضات ومن أبرزها التناقض الجنسي الذي يسيطر على كنهه. ففعل الزواج الذي أنشد الرجل العزم عليه لم يكن سوى غطاء يحاول من خلاله أن يخفي الشذوذ الجنسي الذي رافقه من المراهقة بفعل فقدان أنابيل التي تربعت على عرش رغبته الجنسية.

كما أن همبرت نفسه واع بهذا الهوس الذي يكبل ذاته، لكنه حاول في هذا الصدد أن يقاومه ويبحث عن بديل من شأنه أن يروض كيانه الذي يميل إلى المراهقات الصغيرات.

ارتباطاً بما سبق، فتركيز همبرت على أن تكون زوجته تشبه المراهقات في تصرفاتها وطبيعة حضورها في المنزل،يوحي في العمق على أنه لا يبحث عن معنى الاستقرار ولا عن الحب في شخص زوجته فاليريا، بقدر ما ينقب في تفاصيلها عن جوهر المراهقات اللواتي يشبهن فتاته في المراهقة. لذلك" فالسعي إلى اللذة من أجل ذاتها يصبح شاذا إذا طغى على حاجات الإنسان الحقيقية وجعله يهملها وينحرف عنها." (بندلي، صفحة 39) لأن هذه الرغبة ليست رغبة ثابتة في الذات بل هي عبارة عن تمويه ومحاولة من أجل إحياء مشاعر وأحاسيس تعود إلى الماضي البعيد.

إن هذه الأحاسيس التي تخللت كيان شخصية همبرت والتي أشرنا إلى أن تفسيرها لا يمكن أن يستقيم دون العودة إلى فترة طفولته ومراهقته بالتحديد، هو شذوذ جنسي يمكن أن يصيب أي فرد في المجتمع، خصوصا إذا تعرض لظروف قاسية وتربية غير سوية." فتاريخيا كان الانحراف هو الجانب المظلم من الحياة الجنسية التي كانت هي ذاتها محاطة بصمت قمعي ومحرم.وبما أن السلوك الجنسي المنحرف هو تجسيد لا يوصف للشر، فقد اعتبر خاطئا، تجفيفا فاسدا، وغير شرعي." (sheldon travin, 1993, p. 17)

ولعل اعترافات همبرت عدة مرات في مسار السرد على العقوبات التي يمكن أن يتعرض لها نتيجة هذا الانحراف كفيلة بإجابة المتلقي على العقاب الذي تنزله حتى الدول المتقدمة والأكثر تحررا في مسألة ممارسة الجنس مع القاصر، أي عندما تتحول الرغبة الجنسية إلى فعل شاذ منبوذ اجتماعيا وأخلاقيا ودينيا.

سيلاحظ المتلقي أثناء تصفحه أحداث الرواية التي ستثير في نفسه أحاسيس متناقضة، بين عطف ضمني على شخصية همبرت-المريض نفسيا وجنسيا- الذي يعد نتاج مجتمع وضحية تربية خاطئة، وبين إدانة لا يمكن التساهل معها خصوصا إذا استحضرنا أنه كان مثقفا ومبدعا وعارفا بطبيعة المرض الذي يعاني منه.

كي نفصل في تحديد ملامح الرغبة الجنسية وتجليات الانحراف سنحاول العودة إلى مقاطع سردية في رواية لوليتا من أجل إماطة اللثام عنها، فمن بين الاعترافات التي جاءت على لسان السارد/البطل المراهق/ الرجل/ الجاني/ الضحية/ المذنب/همبرت ما يلي:

"وتطلعت فوجدتها قد أتت حافية ورأيت آثار الصباغ الأحمر على أصابع قدميها، رباه ما الذي لا أدفعه من أجل أن أقبل كعبها الناحل ذا العظام الرقيقة." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 63) من خلال الوصف الذي اعتمد عليه السارد البطل في وصفه للمراهقة، يتضح جليا أن رغبة قوية غير سوية تجتاح أعماقه، ذلك من خلال اعتماده على مجموعة من المفردات ذات الإيحاء الجنسي. " رباه ما الذي لا أدفعه من أجل أن أقبل كعبها" فهذه الجملة كفيلة بأن تؤكد على أن نظرة همبرت للمراهقة ليست نظرة بريئة بل تعتريها نظرة شهوانية شاذة. مما يزيد تأكيدا على هوسه الجنسي وصفه للمراهقات بقوله." كانت لوليتا كلها مشتهيات، كانت تمثالا من ماء الورد والعسل، وكانت ترتدي ثوبا شفافا يكشف عن محاسنها وخطوط جسدها الأنيقة وعن ساقيها المخدوشتين." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 121) هذا المقطع يضيف إلى ما سبق أن نظرة همبرت وهو في الخمسينات ليست نظرة عفوية بقدر ما تحمل دلالات رغبة جنسية، ولعل طبيعة الوصف الذي ركز على مفاتن الصغيرة خير دليل على انحراف تفكير همبرت الجنسي.

إن الشذوذ الجنسي ليس غريبا، وليس وليد اللحظة أو هو نتاج التطور الذي عرفه العالم اليوم، صحيح أنه أثر على سرعة انتشاره من خلال تعرف الأطفال والمراهقين على مشاهد وأفلام إباحية، بيد أن الشذوذ صاحب الإنسان منذ قرون طويلة.

تجدر الإشارة إلى أن طبيعة الشذوذ الجنسي الذي نحاول تحديد معالمه هو تغير في بنية المشاعر العادية أو المشاعر التي تنتاب الذات السوية تجاه الجنس الأنثوي، فالرجال يعجبون بمحاسن النساء والنساء يعجبن بدورهن بالرجال وهذا طبيعي. إلا أن الغريب؛ والذي يعد شاذا بالنسبة لنا أن يكون رجل في الخمسينيات يفكر في المراهقة باعتبارها موضوع رغبة كبيرة.

نذكر القارئ مرة أخرى؛ أننا لا نتحدث عن مراهقة في نهاية مراهقتها بل هي مراهقة في الثانية عشرة من عمرها، أي في بداية مرحلة البلوغ، مما يؤكد على براءة المراهقة نستحضر ما أكد عليه فرويد حين تحدث عن طبيعة الشذوذ وماهيته. إذ يقول"

لقد عدَ الشذوذ في أول الأمر علامة على انحطاط عصبي خلقي. وآية ذلك أن أول الأشخاص الذين لاحظ الأطباء لديهم شذوذ كانوا مرضى عصبيين، أو يبدون على الأقل كذلك. وتقوم هذه الدعوى على قضيتين: أن الشذوذ خلقي وأن الشذوذ علامة انحطاط. (فرويد، 1983، صفحة 14) من صعب أن نقر بشكل دقيق عن نوع الشذوذ الذي يعاني منه همبرت بعيدا عن الرواية، لكن حينما ننظر إليه في سياق الرواية نستطيع بسهولة أن نقول أنه لم يكن يعاني من هذا الشذوذ في مراهقته، وعلى كل حال لن نحاول التفصيل في مدى صحة نوعي الشذوذ ومن هو السبَاق بقدر ما سنركز على ما جاء في الرواية.

ارتباطا بما سبق نسوق مقطعا سرديا يتحدث فيه همبرت عن شذوذه، حين قال" كان عقلي يرفض الاستجابة لتوسلات جسدي ويرفض مطاوعته على تفريغ كربه، فكان الخوف والخجل يفترساننني أحيانا وكان التفاؤل المتهور يسم تصرفاتي أحيانا. فإذا استشرت المحللين النفسيين وعدوني دوما بالشفاء من حالتي ووعدوني دائما بتحرر مزعوم مما زعموا أنه شهوات كاذبة." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 23)

إن هذا المقطع السردي كفيل بأن يقدم صورة عامة عن حياة همبرت الجنسية وعن طبيعة تفكيره في سلوكياته التي يدينها في كثير من الأحيان، إذ يحس بالخجل من هذا الإحساس الذي يراه من الجانب العقلي غير سوي. إلا أنه سرعان ما يتحول هذا الشعور إلى مصدر السعادة والتفاؤل، فهذه الرغبات التي تتراوح بين المنطق واللامنطق قاده إلى معاينة متخصصين في التحليل النفسي، كل هذه المؤشرات دالة على مدى وعي الذات بمرضها وهوسها الجنسي الذي انحصر في صنف المراهقات" المسعورات" حسب تعبيره، المراهقات اللواتي يقبعن بين آخر مرحلة في الطفولة وبداية مرحلة المراهقة.

كيف نفسر هذا التناقض الصارخ في كنه شخصية مثقفة؟ وهل يحق لنا أن نحاسبه أم نحاسب البيئة التي نشأ فيها؟

كل هذه التساؤلات عصفت بذهننا ونحن نقرأ الرواية لمرات عدة، تارة نجد أنفسنا بين غضب عارم وتارة بين شفقة لا تخلو من الأسى على حالة شخصية همبرت، هذا هو سحر الفن الروائي الذي يهدف إلى جعل القارئ يعيش تجارب الشخصيات كأنه في عصرها أو هو واحد من تلك الشخصيات، خصوصا إذا استحضرنا اعتماد الكاتب على أسلوب الحوار الذي يجعل همبرت/السارد في كثير من الأحيان يتنبأ بطبيعة الأسئلة التي تجتاح المتلقي.

كما أنه يطلب في أحيان كثيرة تريث القراء في الحكم عليه وعدم التقزز من أفعاله التي تجعله مجرما يستحق أشد العقوبات.

مع تطور الأحداث وتعلق همبرت بالمراهقة لوليتا التي هام بها إلى حد الهوس، اتجه بعدها إلى تفسير طبيعة حبه للمراهقات اللواتي يجد في عشقهن ملاذا وخلاصا لكل الرغبات الجنسية التي يمكن أن يشعر بها أي رجل، بل ويقر أن فعل المشاهدة وحدها تكون في حدود معينة أكبر من معاشرته للنساء الناضجات اللواتي لا يشعر معهنَ بنفس الشغف واللذة، يبرر هذا الميل الشاذ بقوله" كنت أعرف تماما ما أرغب في أن أفعله وكيف أفعله وذلك دون أن انتهك رغم كل شيء، عفاف الطفلة ففي حياتي تجارب سابقة في مداعبة المراهقات دون الإضرار ببكارتهن." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 66) يصف المقطع صراحة همبرت مع نفسه ومع الآخرين من خلال الكشف عن حيثيات علاقاته مع المرهقات،إذ أشار أن ميله إليهنَ لا يصل إلى مرحلة الفعل الجنسي الكامل بقدر ما يكون عبارة عن مداعبات سطحية لا تجرمه ولا تؤذي الضحايا. ناهيك عن حديثه عن تجارب جنسية سابقة تقر بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الشذوذ ليس شذوذا عرضيا، فهذا الأخير حسب تفسير فرويد بقوله" الشاذون العارضون- في هذه الحال يتحدد الشذوذ بالظروف الخارجية، وبخاصة عدم توفر موضوع جنسي سوي، أو تأثير الوسط." (فرويد، 1983، صفحة 13) لكن تكرار هذا الفعل مرات عدة يتحول بموجبه من شذوذ عرضي إلى شذوذ دائم يصاحب الفرد في حياته.

استنادا إلى ما سبق؛ يمكن القول إن شخصية همبرت تعاني من شذوذ جنسي مرتبط بصنف المراهقات الصغيرات، كما أننا نشدد من وجهة نظرنا في هذا المقام على أن العوامل التي قادت إلى هذا الشذوذ اقترنت بطبيعة الظروف المحيطة بالمراهق إبان مرحلة المراهقة ناهيك عن عدم إشباع رغبته في الحب من طرف الأم التي ماتت وهو لا يزال في الثالثة من عمره، ثم طبيعة العلاقات الكثيرة التي دخل فيها والده في مرحلة المراهقة مما جعل المراهق ينفتح على عالم الشهوة واللذة من بابها الضيق في مرحلة كان من المفترض أن ربى على الثقافة الجنسية.

وأخيرا فعلاقته بالمراهقة آنابيل التي عاش معها أول تجربة جنسية وإن كانت غير مكتملة، كما أن موتها المفاجئ أثر في نفسية المراهق همبرت وجعل رغبته الجنسية في عمق ذاكرته مستقرة على أصناف آنابيل وشبيهاتها اللواتي ظل يبحث عنهن لسنوات حتى استقر به الأمر مع لوليتا التي جعلت رغباته تتقد من جديد في صورة مشوهة.

4-المراهِقة بين براءة الطفولة والدوافع الإيروسية

تشكل فترة المراهقة فترة حاسمة في حياة المراهق أو المراهقة، خصوصا من الناحية النفسية التي بموجبها تتبلور شخصية هذا الكائن الذي سيغدو مستقبل الأمة، لذلك فالعناية بالمراهِقة والمراهق أمر يتطلب جهودا جبارة من قبل عدة أطراف، منها الأسرة بالمقام الأول ثم المدرسة، فالمحيط الاجتماعي والأقران.

وعليه؛ إذا كنا في العناصر السابقة قد حددنا بنية المراهق همبرت من عدة زوايا؛ فإننا في هذا الجزء الأخير من الدراسة سنركز على ذات المراهِقة باعتبارها جزء لا يتجزأ من بنية المجتمع، ناهيك عن اعتبارها أكثر عرضة للمخاطر في فترة مراهقتها خاصة من الناحية الجنسية.

من هذا المنطلق سنحاول تتبع بعض مسارات المراهقة لوليتا بالتحديد ورصد طبيعة بيئتها وعلاقتها بالأسرة وبالجنس، من أجل الخروج بأهم العوامل المؤثرة في انحراف المراهِقات جنسيا وسلوكيا في هذا السن.

أ تجليات الاضطراب بين المراهِقة والأسرة

صور كاتب الرواية المراهقة من عدة زوايا من أجل لملمة أجزاء شخصيتها، حيث ركز في البداية على علاقة لوليتا بأمها، هذه العلاقة التي كان يطبعها مبدأ عدم التوافق وعدم الرغبة في التواصل،و يمكن القول إن الأم لم تعرف طبيعة الخطاب الذي يجب أن تمرر لابنتها التي ترفض بشكل واضح في سياق الرواية طاعة أوامرها. وقد نقول إنه أمر طبيعي في هذه الفترة مع تحفظنا على بعض الاستثناءات، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى صعوبة المراهقة كمرحلة انتقالية.

وعبر الباحث أحمد أوزي في هذا المنحى عن صعوبتها بقوله "إن المراهقة فترة تختلف من حيث شدة انفعالاتها أو ضعفها باختلاف الأفراد وباختلاف بيئاتهم السوسيو-ثقافية وما تضعه من معايير وقيود في التمييز بين الأطفال في النمو أو ما تضعه من نماذج في السلوك." (أوزي، المراهق والعلاقات المدرسية، صفحة 11) هذا الاستشهاد من متخصص في المجال ينم عن مدى أهم هذه المرحلة واختلافها من بيئة لأخرى، بالإضافة إلى الفرق الواضح في نسق المجتمعات أخلاقيا ودينيا وثقافيا.

لذلك؛ فمن الطبيعي أن تختلف سلوكيات المرهقات في أمريكا على سبيل المثال عن مراهقات المغرب أو مصر. وهذا مقبول ومنطقي إلى حد كبير، لكن يظل دور الأم والأب في حياة المراهق والمراهِقة كبير رغم تباين الثقافات لما في الأسرة من قوة وحب يمنحان الثقة بالنفس والنمو سوي للذات.

سيتعرف المتلقي على أسرة لوليتا التي تعيش مع أمها شارلوت دون أب، حيث يعد هذا أيضا عاملا مهما في عدم توازن الأسرة، لأن دور الأب يظل مهما حتى وإن بلغت درجة الأم من العناية

بالمراهِقة مرتبة كبيرة سواء على مستوى- النمو النفسي- الإحساس بالأمن- فالأب يظل مصدر القوة والاستقرار في كل الأحوال.

في ظل هذه الأوضاع قررت الأم الزواج، لأنها تعرف أنها لن تستطيع تربية ابنتها وحدها، ناهيك عن رغبتها في تلبية حاجتها البيولوجية من جهة ثانية وهذا حق عادل ومشروع في أي ثقافة في العالم.

كان زواج الأم من همبرت نقطة تحول حاسمة في حياة الأسرة، سواء شارلوت أو لوليتا، فقد أبدت أم لوليتا رغبتها الكبيرة في الاستقرار مع زوجها بعيدا عن أي فرد آخر حتى وإن كانت ابنتها. في حين كان همبرت يخطط من جهة أخرى لاحتمالات عدة من شأنها أن تبعد الأم عن ابنتها حيث قال" فقد خطرت لي أن ذهاب الأم إلى مستشفى للولادة في الربيع القادم، ربما أتاح لي فرصة الانفراد مع لوليتا وخاصة إذا تعقدت الأمور وتطلب الأمر إجراء العملية القصيرية، وتصورت كيف سأتمتع بمحاسن المراهقة المسعورة، بعد أن أدس لها الأقراص المنومة". (نابوكوف، لوليتا، صفحة 90) يفضح هذا الجو الأسرى المحيط الذي عاشت فيه لوليتا، بين رغبات منحرف يتربص بها في كل لحظة وأم أنانية تفكر في حياتها الجديدة مع زوج لا يرغب سوى في الظفر بابنتها المراهقة.

لا شك أن غياب التربية الفعالة في حياة المراهقة سيقودها بشكل من الأشكال إلى الوقوع في أخطاء كبيرة في حياتها، نظرا لغياب" الشخصية القدوة سواء كان مدرسا أو أبا أو صديقا، ففي نظر المراهق هو بمثابة مرشد نفسي وتربوي قادر على تقديم وبث الطمأنينة في نفسيته." (خطاب، 2010، صفحة 26) لكن في سياق المراهقة لوليتا، نجد أن كل المحيطين بها تعمدوا بشكل من الأشكال إلى دفعها نحو الحياة التي ستعيشها في حياتها، وخير دليل على قولنا ما جاء على لسان الأم حين قالت" أخشى ألا يكون لها أي مكان في وجودنا الجديد.. سأرسلها من المخيم رأسا إلى مدرسة داخلية ممتازة، ذات نظام شديد وتدريس ديني سليم." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 91)

هذه التفاصيل السابقة تقدم لنا مجموعة من الافتراضات التي يمكن أن نحدد بعضها في تغير سلوك المراهِقة في ظل هذه الأوضاع." فحقيقة السلوك الاجتماعي تتضح في الآثار التي تحدثها الظروف الاجتماعية والبيئية على سلوك الإنسان وتصرفاته وهذا يعني أن الإنسان رغم أنه فاعل فهو كذلك منفعل بتأثير هذه الأحداث وآثارها في نفسه." (الأزرق، 2013، صفحة 40) التي تكون تحت وطأة المجتمع الذي عاش فيه وتفاعل مع أفراده الصالحين والسيئين في نفس الآن.

ب-صور الانحراف في حياة المراهِقة

تختلف الأسباب والعوامل المؤثر في حياة الفرد من مجتمع إلى آخر، كما تتعدد أشكال الانحراف أيضا. فحياة الإنسان محكومة بالمحيط الاجتماعي والثقافي الذي ينشأ فيه مما يجعل كل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر. سنحاول في هذا الجزء الأخير أن نحدد بعض ملامح انحراف المراهقة لوليتا التي تعد من بين أهم الشخصيات الرئيسية في الرواية قيد التحليل.

ارتباطا بمفهوم الانحراف؛ فإننا سنعرض بعض المقاطع السردية التي تقدم مجموعة من الصورة الدالة على بدايات الانحراف. نستشهد بقول شخصية همبرت حين قال" وفي بادئ الأمر رفضت لوليتا أن تجرب كنه ذلك الشيء، ولكن فضولها مشفوعا بنفوذ زميلتها تغلبا على برودها، وما لبثت أن أصبحت تتناوب وباربرة الخلوة مع تشارلي الذي كان مراهقا وسيما لا يكل ولا يمل." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 147)

يلاحظ المتلقي في هذا المقطع السردي مجموعة من العلامات الدالة على بعض ملامح بداية الانحراف في حياة آنابيل، حيث سيكتشف المتلقي بعد مرور الكثير من الأحداث أن التجارب الجنسية الأولى للمراهِقة خاضتها قبل تعرفها على همبرت، مما يعزي أمر مسايرتها لتحرش هذا الاخير دون أي اعتراض أو إحساس بالندم أو الخوف. بل سبق أن صرح همبرت أنها فقدت بكارتها في تجاربها مع تشارلي وهمبرت.

هكذا نستنتج أن نشأة المراهِقة ونوعية الأصدقاء وطبيعة التربية قد ساهموا من بعيد أو من قريب في تقديم صورة لوليتا كما هي عليه في مسار الرواية، الأمر الذي جعلها بشكل آلي تنسجم مع عالم الجنس في آرقى مستوياته. حيث سيجد المتلقي مجموعة من العبارات التي تؤكد تمادي المراهقة في استثمار جسدها في جني النقود من العجوز همبرت،هذا يعد في نظرنا نوعا من الانحراف الذي يقود إلى عالم الدعارة في المستقبل.

يقول همبرت" ولقد استطاعت في إحدى المرات إذ أدركت قوة سحر فمها الرطيب أن ترفع ثمن المعانقة إلى ثلاثة بل أربعة دولارات." (نابوكوف، لوليتا، صفحة 195) تتطور أحدا الرواية وتتطور بالموازاة شخصية المراهقة التي تصدم القارئ بجرأتها حتى يشك في صحة أنها مجرد مراهقة لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمرها في سياق هذا المقطع السردي. فهذه الجرأة والمساومة على العناق مقابل المال ينذر بأن المراهِقة على دراية بشكل ضمني بعالم الدعارة الذي يشترى فيه الجسد مقابل النقود، لذلك كانت تتعمد أن تنتهز هذه الفرصة أمام همبرت الذي احتكرها لنسفه كأنها ملك له وحده.

مما سبق نستخلص أن الجنس كان من بين أهم العوامل التي غيرت شخصية المراهِقة، لأن" الفتنة ليست نائمة كما يزعم الأقدمون، فالنشاط الجنسي موجود في الطفولة. كذلك الاهتمام والرغبة في الاستطلاع الجنسي يعترف بها كل أب وأم. فبدلا من أن يستمد الطفل الحقائق مشوهة منحرفة من زميل أو كبير وجب أن نحضنه." (فهيم، صفحة 80) بالاعتماد على الحوار والنقاش البناء، طبعا وفق ما تستدعيه كل مرحلة من مراحل الطفل، أما بالنسبة للمراهقة لوليتا، فوضعها الاجتماعي ومحيطها أثرا عليها بشكل كبير مما جعلها لقمة صائغة لنزوتها الجنسية ثم بعدها ضحية لشخصية شاذة يسيطر عليها الهوس الجنس تجاه المراهقات في مثل سن لوليتا.

الخلاصة

حاولنا في هذا المقال تحديد علاقة الرواية بتحليل النفسي باعتبارها فن يعبر عن تناقضات الواقع من خلال شخصياتها التي تعيش وتعاني من أزمات وتعيش أفراحا كما يعيشها الإنسان في الحياة الطبيعية. كما حددنا بشكل مقتضب بأن رواية كانت من بين الفنون التي ساهمت في بلورة مفاهيم التحليل النفسي مع فرويد، حيث حاول هذا الأخير البحث عن تناقضات الذوات البشرية من خلال الصراعات التي عيشها في حياتها وفي علاقتها مع المجتمع.

هكذا، ارتأينا التركيز على الشخصيات المراهقة من منطلق اهتمامنا الأكاديمي من ناحية، ثم من اعتبار هذه الفترة من أبرز المراحل التي تشكل نسق الفرد في المنظومة الاجتماعية. فالكاتب حينما يكتب فإنه بالضرورة ينطلق من نفسه ومن مجتمعه الذي يعيش فيه، حيث يعبر عن هذا التناقض الذي يمزق الإنسان من خلال شخصيات ورقية تحاكي ما التقطته ذاكرته وتجاربه الحياتية.

حددنا في سياق تحليلنا لرواية لولينا لكاتبها الروسي فلاديمير نابوكوف خصائص الشخصيات المراهقة، من خلال الوقوف على طبيعة فترة المراهقة والتناقضات التي يعيشها كل من المراهق والمراهقة، خاصة الرغبة الجنسية التي تبدأ في فرض ملذاتها عليهم.

من ناحية أخرى ركزنا على دور المحيط الاجتماعي الذي من شأنه أن يساهم في تربية المراهقين والسمو بهم إلى درجة من الوعي بجوهر الفترة التي يمرون بها. ثم كشفنا عن غياب دور الأسرة كالأب والأم في حياة المراهقين وما من شأنه أن يترتب عن هذا الغياب من عقد نفسية أو اضطرابات نفسية تقود هذه الفئة إلى الانحراف أو الشذوذ.

أخير، شددنا على أهمية تربية على الثقافة الجنسية في هذه المرحلة التي تعد فعلا مرحلة الحسم في تكوين إنسان المستقبل، فبدون انخراط الفاعلين، الأسرة، المحيط، المدرسة، سنخرج أفردا يعانون من الشذوذ كشخصية همبرت وضحايا مثل المراهقة لوليتا التي أدت بها التجارب الجنسية المبكرة إلى الانحراف بعدنا تم استغلالها من طرف همبرت لسنوات عدة.

المصادر والمراجع:

1. حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، منشورات عالم الكتب، القاهرة، ط5،198
2. أحمد أوزي، الطفل والمجتمع، دراسة نفسية اجتماعية لصورة الطفل المغربي من خلال الرواية، منشورات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1،1988
3. أحمد أوزي، المراهق والعلاقات المدرسية، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط3،2011.
4. أحمد عبد الكريم حمزة، وآخرون، التربية الجنسية للأطفال والمراهقين، منشورات دار الثقافة، عمان، ط1،2010
5. بينجامين سبوك، فن الحياة مع المراهق، منشورات، ط
6. تيودور رايك، ترجمة، ثائر ديب، سيكولوجيا العلاقات الإنسانية، منشورات دار المدى للثقافة بيروت ط1،205
7. جاريد دايموند، ترجمة، أحمد إبراهيم-سامر حميد، لماذا الجنس للمتعة، تطور النشاط الجنسي البشري، منشورات دار سطور، بغداد،ط1،
8. كولدمان، ساروت، وآخرون، الرواية والواقع، ترجمة رشيد بنحدو، منشورات دار قرطبة، الدار البيضاء عيون المقالات، ط1،1988
9. سيغموند فرويد، ترجمة، جورج طرابيشي، ثلاث مباحث في نظرية الجنس، منشورات دار الطليعة، بيروت، ط2،1983
10. فلاديمير نابوكوف، رواية، لوليتا، ترجمة، منشورات دار أسامة، سوريا ط، نشرت أول مرة 1955 باريس،1958، نيويورك
11. فهيم كلير، المشاكل النفسية للمراهق، منشورات دار نوبار شبرا القاهرة، ط2،
12. كوستي بندلي، الجنس ومعناه الإنساني، ترجمة يوسف الخال، منشورات النور بيروت، ط4،1980
13. ليندا دافيدوف، مدخل إلى علم النفس منشورات، ترجمة، سيد طواب-محمود عمر وآخرون، منشورات الدار الدولية، ط3،1992
14. مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقية، منشورات دار الفكر العربي، ط1،2013.
15. وليم ماسترز وآخرون، المراهقة والبلوغ، ترجمة، خليل رزوق، منشورات دار المناهل بيروت، ط1،1998
16. 2020
17. sheldon travin, b. p. (1993). *sexual perversion: integrative treatment approaches for the clinician.* new york: plenum press.